الحبليل ومرادفاتها

١ ضبط اللغة ونقد كلام اللغويين

جاء في لسان العرب : الحُبَيل : دويبة تموت فاذا اصابهُ المطر عاش . وهو من الامثلة التي لم يحكها سيبويه . انتهى . وفي حاشية اللسان نظر للناشر قال : « قولهُ : والحُبَيل هكذا في الاصل بفتح الباء . وعبارة القاموس : والحُبَيل بالضم ظر كتبهُ مصححهُ

وفي كلام اللسان نظران : النظر الاول في ضبط الكلمة والثاني في قولهِ : دويبة تموت فاذا اصابهُ المطر عاش . فقولهُ اذا اصابهُ المطر عائد الى الحبليل وهو مذكر فضلاً عن انهُ يجوز ان يرجع الضمير الى دويبة ودويبة مصغر دابة ودابة تقع على المذكر والمؤنث على ما يراد من معناهُ . ولهذا لا غلط في كلامهِ هذا . وان كان الاحسن ان يذكر في الحالتين او يؤنث فيهما . واما ضبطهُ الحبليل بضم ففتح فخطأ وهو من سبق القلم . والاصح بالضم فقط اي بضم الحاء وسكون الباء على ما صرح بهِ صاحب معيار اللغة اذ قال في مادة ح ب ل : والحُبَيل : بضم الحاء وسكون الباء وكسر اللام الاولى وسكون المثناة التحتية : دويبة تموت ثم بالمطر تعيش . فهذا نص صريح على ان ضبط اللسان غير صحيح . واما قولهُ تموت وتعيش وهو يكاد يكون نص جميع اللغويين فهو اغرب من وزن اللفظة فكيف تموت ثم بعد ذلك تعيش . فهل يمكن هذا الزعم في الحشرات ؟ كلاَّ لكن الموت في العربية لا يدل على مفارقة الحياة للجسم فقط بل يدل على السكون من باب المجاز فيقال : تماتت الريح والحرة والنار والحرّ اذا سكنت . فمعنى قول اللغويين دويبة تموت ثم تعيش هو انها تسكن حركتها او انها تختفي عن الابصار ثم تعود الى الانتعاش والانتعاش

واتماماً للفائدة لا بدّ ان نذكر نص التاج ايضاً . فقد قال : الحبليل بالضم دويبة تموت ثم بالمطر تعيش . وعبارة المحكم : فاذا اصابهُ المطر عاش . قال : وهو من الامثلة التي لم يحكها سيبويه اه . قلنا : والذي وجدناهُ من نص سيبويه (٢ . ٣٣٧ من طبع مصر) هو قولهُ : « ولا نعلم في الكلام فعليل » وهي

مضبوطة بالقلم بفتح فسكون فكسر. ولعل الاصل مضبوط بفتح وضم مما يليهما سكون فكسر والا كيف جاز لصاحب الحكم ان ينسب الى سيبويهِ شيئاً لم يقلهُ ؟ وكلا فُعليل وفَعليل قليل الورود في العربية . فمثال فعليل بضم الاول زُرنفين وقد انكره بعضهم وابدهُ آخرون . ومثال فَعليل بفتح الاول قلعيت . قال عنهُ في مراصد الاطلاع (بفتح الاول وسكون الثاني كما في معجم البلدان لياقوت) وبكسر العين ثم ياء ساكنة وتاء مثناة من فوق : موضع كثير المياه

واما جعل سيبويه لهذا الوزن فلا ينفي وجودهُ فلقد فاتهُ عدة اوزان لم يذكرها وهي موجودة في العربية كجَهْنَدر وزان قُمْطر وعفرقس كفعلل وقُرطُبة كفعلة (وقد وردت في محيط المحيط هذه اللفظة قرطُبة وهو مخالف لنصوص اللغويين) وطُهرُمس كفُعلُل الى غيرها

٢ — اصل اللفظة

الحُبليل عندنا منحوتة من « حبول الليل » والحبول جمع حبل يعني الخيط المتين والرباط . وذلك لان هذه الدويبات تخرج في الليل فيتوهم الرائي انها قطع من الحبول . ولا يستلزم في الحبل ان يكون في غاية المتانة والغلظ بل ان يكون متيناً قوياً ولو دقيقاً ومنهُ على التشبيه حبل العاتق وحبل الوريد وحبل الذراع وحبل الظهر الى غيرها كحبال القمر وحبال الشمس وحبال الضوء

٣ — حقيقة الحبليل

الحبليل دويبة تختفي في باطن الارض مدة ثمانية او تسعة اشهر حتى يصح ان يقال عنها انها تموت ثم تخرج في ايام الصحو في فصل المطر اي فصل الربيع بعد مطر دافئ ولاسيما في ليالي تلك الايام حتى يصح ان يقال عنها انها تعيش بالمطر. هذا ما من جهة تعريفها الوصفي واما تعريفها العلمي فهو : جنس من المتحلقات (او الحلقيات) الزعرة(١) تشتمل على ديدان منتفخة (قاعة الشعر) مدورة الجسم عارية قابلة العدد طويلة مؤلفة من حلقات مستدقة المقدم مدملكة المؤخر او تكاد

(١) الزعر التقليل الشعر والمتزغه واصطلاحا وبصيغة التأنيث جنس من الدود قليل الشعر وبالفرنسية oligochètes واللفظة العربية تؤدي المعنى المطلوب احسن من الافرنجية

وعلى كل من هذه الحلقات سمّان (ثقبان دقيقان والجمع مسامّ) يخرج منهما مادة لزجة تمكنهُ من الانسلال خلال الارض ومن دفع يبوسة الهواء محافظةً على حياتهِ . والحبليل ختني ويعيش في الارض الندية والاماكن العفارية والمرنة(١) وفي المزبل والاسمدة . والسمك يحبها اشد المحبة ومغرم باكلها ولهذا يتخذهُ المركيون (صيادو السمك) بمنزلة طعم . ومن المولعات باكلهِ المناجذ والطيور والهلاميات وكثير من الدويبات التي تتخذهُ قوتاً لها . واذا اقبل الشتاء غاص في الارض الى ان يطيب الوقت فيخرج ليلاً عند ما تكون السماء صاحية وبعد مطر دافىء على ما تقدمت الاشارة اليهِ . والمثال المتخذ إماماً لهذا الجنس هو الحبليل العاديّ او المشهور يبلغ طولهُ نحو ٤٠ سنتمتراً وهو بغلظ الريشة الضخمة وعدد حلقات جسمهِ نحو مائة وقد تبلغ نحو ٢٤٠ عداً

هذا وكثيراً ما تكون حمرتهُ على صفرة لاسيما بعد ان يكون قد بقي مدة طويلة مختفياً تحت الارض فيستخرجهُ صغار الاعراب ويشدّونهُ في الفخاخ لصيد العصافير

٤ مرادفات الحبليل

ليس الحبليل الاّ دودة الارض في لسان العوام وهي التي يقال لها ايضاً الخراطين وقال في اللسان : الخراطين ديدان طوال تكون في طين الانهار . قال الازهري ولا احسبها عربية محضة . والله اعلم اهـ . قلتُ : الخراطين فارسية وهي في هذه اللغة خراتة المنحوتين من « خره » الزندية ومعناها الوحل والطين ومن « آتين » اي الموجود او العائش ومحصل معناها العائش في الطين ويقول الفرس فيها ايضاً « خراتين » وذهب بعضهم الى ان الكلمة عربية منحوتة من « خراء » و« طين » وهو وهم ظاهر لا يحتاج الى تفنيد وهو رأي فرهنك الشعوري في مادة خراطين

ومن مرادفاتها ايضاً حمر الارض والواحد منها حمار الارض وقد صرّح بذلك صاحب برهان قاطع المعجم الفارسي الشهير

واسمها الرابع شحمة الارض قال الدميري في مادة شحمة الارض قال القزويني

(١) المرنة من الارض اللينة نقلها الافرنج بصورة marne

في الاشكال : ان شحمة الارض تسمى بالخراطين (١) وقال في تاج العروس : شحمة الارض : دودة بيضاء او هي من الخراطين او هي عظاءة بيضاء غير ضخمة وقيل ليست من العظاء هي اطيب واحسن. وقالوا شحمة النقا كما قالوا بنات النقا(٢)

ومن اسمائها العنم واحدتها عنمة وسميت كذلك من باب التشبيه للعنم وهي خيوط يتعلق بها الكرم في تماريخه والذي ذكره اللغويون انهُ ضرب من الوزغ او هو كالعظاءة وهم مختلفون فيها اختلافهم في شحمة الارض وغيرها من الحيوانات والمصيب هنا هو التاج في مادة دسس كما يأتي :

ومنها الدساسة على ما في تاج العروس : شحمة الارض وهي العنمة . ولها غير هذا المعنى والمطلوب هنا ذكر مرادفات الخراطين

ومنها الدحّاس (كرمّان) والدحّاس (كشدّاد) على ما في القاموس وهي دويبة صفراء سميت لاستيطانها الارض(٣) وهي في الصحاح هكذا. والجمع الدحاحيس(٤) والاولى (اي الدحاس) نقلها الصاغاني. وفي المحكم الدحاسة (وزان رمانة وشدادة) دودة تحت التراب صفراء صافية لها رأس مشعب دقيقة تشدها الصبيان في الفخاخ لصيد العصافير لا تؤذي(٥) . انتهى عن التاج

وقد ذكر فريتاغ وغوليوس في معجميهما من مرادفات الخراطين بنات وردان وحية الوادي وكلاهما خطأ وانما نبهنا على هذا الوهم احاطة بالبحث واشارة الى الخطأ

ومن اسماء هذه الحشرة عند عوام المراقبين دودة السمك او دودة الصيد لاستعمال الصيادين لها عند صيدهم

واسمها بالانكليزية earthworm وبالفرنسية lombric او Ver de terre ومع كثرة اسمائها ترى قليلاً من اصحاب المعاجم من ذكر لها مقابلها في العربية

(١) في الاصل المطبوع في مصر وهو كثير الاغلاط : تسمى الخراطي وهو غلط ظاهر

(٢) اختلاف المباني لتفنن الواحد شيء من اختلاف لغات القبائل فشحمة الارض تعني معاني مختلفة لهذا السبب ومن معانيها الخراطين

(٣) وفي التاج : لاستيطانها في الارض ونقلها من خطأ الطبع

(٤) وفي التاج المطبوع : الدحسيس وهو خطأ واضح فاضح

(٥) وفي التاج : لا يوذي

فنجاري بك ذكر بازاء كلة lombric « دودة طعم السمك » ولم يذكر لها كلمة واحدة وبازاء Ver de terre « دودة الطعم » واما يوسف حبيش فذكر دودة الارض لكلتا اللفظتين الفرنسيتين . واصحاب المعاجم الانكليزية العربية كبادجر والياس انطون الياس وسعادة وابكاريوس ذكروا دودة الارض وخراطين ولم يزيدوا على هذا القدر وعلى كل حال فانهم فاقوا اصحاب المعاجم الفرنسية العربية في المصطلح العربي

فوائد علمية عن الحبليل

يظن العلماء ان الحبليل لا يتطوّر في خلقه الاّ انهُ وجد بعض الاحيان في ذُرَيرات بيضية الشكل طول الواحدة عشرا المليمتر وقطرها اصغر منها بنصف متلزرة النسيج مرنة شفراء على صفرة شفافة بعض الشفوف يمكن الناظر من رؤية الحبيبين الذي في باطنها وللطرف الصغير امتداد ليفيّ مذيل بخييطات دقيقة غرضها العلق هذه الجسيمات بجدران الثقوب التي تكون فيها . ولا يعلم الى الآن اذا كانت هذه الذريرات صلجاً (فيالج) او بيضات حقيقية . وليس في كلّ منها الاّ دويدة ومادة جمّارية الى الصفرة ما هي . والظاهر ان لها علاقة بالملحّ . وقد تمكن ليون دفور Léon Dufour من ان يفحص احدى هذه الذريرات فرأى يخرج من الطرف الاضخم دويدة طولها نحو خمسة اجزاء من مائة جزء من المليمتر وقوامها اللين من قوام الحبليل البالغ وعلى ظهره وعاء شرياني لونهُ احمر قانٍ .

واذا قطع الحبليل قطعتين فانك ترى كليتيهما حيتين وتبقيان متحركتين مدة طويلة . وقد اكد كثير من المحققين ان كلاًّ من هاتين القطعتين تغدو دودة تامة بعد ان يخلق فيها ما تحتاج اليهِ من الاعضاء الضرورية لحياتها

ومحل وجود الخراطين الارض اللزجة العلكة المرتة الرطبة . وفي الشتاء توغل غائرة فيها الى بعد بعيد . وهي تفضل الارض السهلة الدرّ وتثقبها بشفاهها العليا كما يثقبها المثقب وتحدد فيها آزاجاً ودهاليز تسلل فيها انسلالاً هيناً لما تفرز من المادة اللزجة التي في جسمها . ولهذه الازاج مدخل ومخرج اي ان الخراطين تتخذ لها قاصعاء ونافقاء على حد ما تفعل اليرابيع فالقاصعاء للدخول والنافقاء للخروج وللقاصعاء فائدة اخرى وهي انها تتخذها مزبلة لها اي انها تلقي هناك المواد التي ابتلعتها عند الحفر

وطعام الخراطين المواد النباتية والحيوانية وتبتلع ايضاً التراب وتمتص منهُ الجوهر المنبت المعروف بالسرر بالعربية ثم تنبذ النفاية وهي ما ترى مكومة بصورة الدود عند القاصعآء

وقد لاحظ اصحاب البحث منذ مدة طويلة ان الخراطين تتغير في لونها باختلاف لون الارض التي تختطها لنفسها بل وقد تكون متلائلة اللون (اي فصفورية) في الخريف خاصة . واذا كان لهذه الدويبات فائدة لكونها تخلل باطن الارض فانها مضرة ايضاً للزراعة لاسيما في البساتين والدايات (١) بيد ان هذه الاضرار لما كانت تقل او تتوازى على ما تحدثهُ من المنافع لتخديدها الارض وادخال الهواء في طبقاتها لم يحفل بها اصحاب الزراعة لاسيما وان هناك جماعة من صغار الحيوانات تعاديها وتأكلها كالقنفذ والصدّاد والمناجذ والطيور اكلة الهوام وبعض الحشرات لاسيما ما كان منها من جنس الخزون

وبعض سكان الهند يأكلون الخراطين وقد يبلعونها وهي نيئة .وكان لها في الطب سابقاً استعمال عظيم فكان يستخرج منها زيت وملح طيار وكانت تنقع في الخمر الابيض فيتخذ مشهياً ومعرقاً ومدراً للبول . والزيت الذي كان ينقع فيهِ خراطين كان مفيداً لتقوية الاعصاب والمفاصل ولا يزال بعضهم يستعملونهُ في الخرع والشلل. ودقيق مسحوق الحبليل بمقدار ٣٠ او اربعين حبة نافع للحدار النقرسي . واليوم يستعملهُ اهل البادية لرتق فتق الامعاء فانهم يسحقون الخراطين فيتخذون منها لصاقاً ثم يحكم وضعها على المكان المفتوق ويربط ربطاً محكماً فتنفذ المادة اللزجية من مسام الجلد الى فتق بطانة البطن فتلحمهُ بعد مدة عشرة ايام . وعسى ان اطباءنا المحدثين يجربون ذلك ليتحققوا الامر بانفسهم

انكليز

(١) جمع دابة وهي الارض التي يبدر فيها صغار النبت والاشجار لتنقل لها بعد ذلك الى ارض تتمكن فيها من النمو . والكلمة عراقية قديمة الاستعمال واهل الشام يسمونها المشاتل والمساكب واهل مصر الشتل وافصحها العراقية لما فيها من الاستعارة الطيبة المقبولة